إشكالية العقلانية في الفكر العربي المعاصر . دراسة في أعمال محمد عابد الجابري*

عبد الله موسى**

مقدمة

إذا كان العقل في جوهره عالمي الهوية و الجذور، إنساني الملامح و الآفاق، فإن العقلانية غير ذلك، إذ هي تتعدد بتعدد الثقافات و الأمم، و من ثم فإن العقلانيات العربية اليوم هي حقيقة وجود يحمل في ذاته تناقضات العصر الذي يحياه. الشيء الذي حمل الفكر العربي منذ نهاية القرن الماضي إلى محاولات عدة لتجاوز واقعه من خلال تجاوز التراث بإعتباره ماضيا متخلفا غير مساير لما يحياه. و ذلك باستلهامه مفاهيم من الفكر الأوروبي ليتمكن من التوفيق و إقامة التوازن بين واقعه و واقع مغاير له، انطلاقا من أنهما لحظتان فكريتان مختلفتان، حيث الفكر الطبيعي و التقني هو نتاج أوروبا الحديثة، و الأفكار الروحية هي تراثه، و من ثم أجريت عملية تكييف و محاولة تبيئة للفكر التقني الأوروبي، لكي يتوافق مع الأفكار الروحانية، كما أجريت عملية مماثلة للأفكار الروحية لكي تقبل التقنية و أصبح بالتالي جوهر المشكلة هي ما الذي نأخذه من الآخر باعتباره "متقدّما" و ما الذي نتمسك به في تراثنا؟. فلاشك من أن الصّدمة التي حدثت بيننا و بين الآخر قد أفضت بالضرورة إلى دخول ثقافة الآخر على مجتمع يحوي ثقافة واحدة (أو لنقل فكرا واحدا) هي الثقافة العربية الإسلامية، (التي تمثل ثقافة الأمة كلها)، هذا الدخول الذي أدى إلى نشوء تضاد بين

---

* رسالة ماجستير نوقشت سنة 1997 إشراف (عبد اللاوي محمد).

** أستاذ مساعد، معهد الفلسفة، جامعة وهران.

"ثقافتين" ثقافة أوروبية في مقابل ثقافة عاجزة عن إنتاج فكر. فكان من نتائج تلك (الصدمة) دخول النزعة العقلانية إلى المجتمعات العربية الإسلامية دون مجابهة تضمن استبدال التوازن القديم إلى المجتمع بتوازن جديد أكثر فعالية و إنسانية، إذ في هذا الإطار نعتقد بأن ثنائية الأنا/ الآخر أصبح لها مغزى أعمق مما هو باد يعبر عن انكماش "الذات" "الأنا" و "الهوية" و تقوقعها،وانغلاقها، خوفها من الآخر... و لا يحدث هذا الانكماش في اعتقادنا إلا حينما تكون البنى الثقافية المعبرة عن "الذات" و "الأنا" و "الهوية" عاجزة، أو ميتة.

و عليه لم تكتسب العقلانية شرعيتها كمفهوم على المستوى الفلسفي و السياسي.. في الفكر العربي، و لم تكن امتداد أو استمرار للفكر العربي، و إنما هي إحدى المسبقيات المعرفية التي فرضت نفسها في ثنايا الفكر العربي، بعد التعرف على مصادر الفلسفة و النهضة الأوروبية و عصر الأنوار أو لنقل بعد الصدمة تحديدا. تعرف الفكر العربي على العقلانية كان إثر لقائه بالغرب، هذا التعرف الذي كان و لا يزال بتميز بالحذر بكثير من المد و الجزر. لأن ما يبرر عدم وجود العقلانية كممارسة قائمة على الإيمان بقدرة العقل و على تفسير المعقول و اللامعقول...إلا أن الفكر لا يزال عاجزا عن المواجهة اللاعقلانية السائدة، و عن تأسيس تنظير عميق لسيرورة مقترحة لعقلنة الواقع، أو على الأقل لعقلنة جوانب من الممارسة الواقعية.. فهو لا يزال يعاني صدمة التحولات الكبرى التي تقع أمام عينيه بدون أن يساهم فيها مباشرة، كما لا يزال يأخذ منها مواقف تحددها مرجعية ماضوية تقليدية عوض أن تكون مرجعية ذات معقولية واضحة مبنية على الاستبدال والتجريب...في حين الرجوع إلى معقولية التفكير يفيد تحرر الفكر من المرجعية الماضوية الضيقة، فالعقل هو مفتاح الحداثة و المعقولية هي سبيل التحديث، لذا نجد الفكر العربي تميز بثلاث مستويات من العقلانية:

المستوى الأول: تواجد لا عقلانية متخلفة و سابقة زمنيا تمثلت في الموروث القديم الذي كان سائدا من رؤى سحرية و واقع متصف في معظمه باللامعقول.

المستوى الثاني: حضور عقلانية (فوقية) كونها مكتسبة عن الآخر أي انفعالية اتجاه آليات الحضارة الحديثة، و ذلك ما مثله الفكر النهضوي في القرنين الأخيرين.

المستوى الثالث: هناك عقلانية تأسيسية من خلال استيعاب المناهج المعاصرة و الطروحات المختلفة التي و أن اتفقت على منطلق "النهوض" فإنها تختلف في الرؤية و التعامل في تحقيق هذا النهوض فمن هذا المستوى الأخير كرَس الكثير من المثقفين العرب جهدهم و محاولاتهم للبرهنة على ضعف الأسس المنطقية لهذا الجانب أو ذاك من الثقافة العربية الإسلاميةالتقليدية، أو قوة هذه الأسس في هذا الميدان أو ذاك من الفكر العربي الإسلامي... و الحقيقة أنهم كانوا هنا و هناك من خلال طرح إشكالياتهم و مقاربات تحليلاتهم..يصبَون في محاولة الإجابة عن التساؤلات التالية:

عن ما مدى حضور العقل و العقلانية في الفكر العربي قديما أو حديثا؟ و عن مكانة العقلانية و أنواعها، و دلالتها في أنواع الخطاب العربي و التساؤل بالتالي عن مستقبل نمط التفكير العربي، و عن مدى إمكانية تطوير "عقل عربي" مبدع، منتج؟ بل و أيضا عن إمكانية تأسيس عقلانية عربية إستشرافية مجابهة لزخم التحولات التي تشهدها الساحة الفكرية العالمية خاصة.

ضمن هذه التساؤلات و غيرها... يندرج هذا العمل كمقاربة تأسيسية ذات طابع استقصائي لعقلانيات الفكر العربي، غايتنا في ذلك استقراء مدى تواجدها، و كيفيات طرحها، و بالتالي الكشف عن إمكانية تأسيسها من خلال الاتجاهات و النماذج الفكرية العربية التي تبنتها سواء كهاجس أو طموح أو محاولة تكريس.. لذا كان اختيارنا "للجابري" كمفكر عربي معاصر إلا لأنه من جهة يمثل في اعتقادي نموذج تطبيقي للاشكالية، و من جهة أخرى يحمل مشروعا ثقافيا يعيد وعينا بالتاريخ من خلال رسم حدود عقلنا العربي بنظام العلاقة التي تحكمه من خلال جينالوجيا العقل، فنموذجنا إذن، يحمل على عاتقه مهمة النقد العلمي لبنية "العقل العربي"، بهدف ارساء قاعدة نظرية نقدية ينطلق منها لتغيير بنية التفكير و الثقافة العربيين في العصر الحديث بما ينسجم و مقتضيات التقدم في العصر الحديث.. و بالتالي تحقيق تنمية في الفكر العربي المعاصر قائمة على الطرح العقلاني لكل قضايا الفكر.

لذا جاء هذا البحث وفق تصورنا لمشروع الخطة التي اعتمدناها بالشكل التالي و المؤلفة من أربعة فصول، كل فصل بمبحثين.

الفصل الأول: المدخل الاصطلاحي: (العقل، العقلانية)

المبحث الأول: العقلانية كمفهوم في الفلسفة الأوروبية الحديثة (النهضة و عصر الأنوار)

لقد كانت محاولتنا من خلال المدخل الاصطلاحي أولا، محاولة لضبط مفهوم العقلانية كمفهوم و نظام قائم على الاستدلال (العقل) في مقابل (تضاد) أنظمة قائمة على المثالية أو الحسيّة، كما أنها تضاد للعفوية القائمة على الدوافع اللاعقلانية كمصدر لكل فعل إنساني، و بالتالي حاولنا أيضا استجلاء مفهومها كرؤية للعالم مبنية على الاتفاق الكلي بين ما هو عقلي (التناسق) و واقع الكون. تبعا لهذا السياق الاصطلاحي و المفهومي حاولنا في المبحث التركيز على تاريخية مفهوم العقلانية من خلال نشأتها و تطورها كاتجاه في الفكر الأوروبي الحديث (النهضة و عصر الأنوار) هذا الاتجاه الذي ظهر في القرن السادس عشر و ما بعده، و الحامل لأولية العقل، منطلقا في عدة معان متكاملة و متفاوتة، مقصيا بذلك من الواقع كل ما ليس عقليا أو ذو طابع عقلي (أي خارج عن دائرة التفسير العقلي) و بشيء من التركيز أيضا حاولنا إبراز الشروط التي أنتجت الاتجاه و المفهوم.. كالتطور الصناعي، و الاكتشافات العلمية المعرفية و الجغرافية.. التي كان لها دور ضاغط باتجاه عقلنة كل جوانب الحياة استجابة لمطلب الكم و النوع في التراكم الصناعي، معتمدين في ذلك على نذمجة لمثلي هذا الاتجاه على المستوى الفكري و الفلسفي "كديكارت"، و "كانط"..آخذين بعين الاعتبار اختلاف نمط العقلانية داخل هذا الاتجاه.

المبحث الثاني: العقلانية كمفهوم في الفلسفة المعاصرة (الحداثة و ما بعد الحداثة).

حاولنا في هذا المبحث الانتقال من عصر الأنوار و ما شهده من ثورات في مختلف المجالات كونه مثل نقطة تحول كبرى في النظام المعرفي الغربي..إلى ما أصبحت عليه العقلانية كمفهوم تداولي في الفلسفة المعاصرة، و بالذات في الفكر ما بعد التنوير أو ما بعد الحداثة أي فكر التساؤلات أو التحولات الكبرى من خلال وضع العقل – العقلانية محل سؤال، عبر إعادة النظر في هذا اللامعقول

الذي أقصاه عصر التنوير..و عبر تكسير صنم العقلانية الذي انتهجته الحضارة الحديثة كمنهج و مذهب. و العودة إلى اكتشاف مصادر العقل اللامعقولة.. مما يفسر اهتمام الغربي بالمقدّس، و السرَي، و اللامرئي في ساحة الفكر اليوم. فاعتمدنا هنا على تيارات مختلفة في هذا المجال من خلال وقوفنا على مواقف مفكرين، "كفرويد"، "باشلار"، "ليفي ستروس"، "فوكو" بوصفهم معبرين عن هذا الفكر الما بعد حداثة في الفكر الغربي.

الفصل الثاني: فهم العقل في التراث العربي الإسلامي

المبحث الأول: مفهوم العقل عند المتكلمين (طبيعته و وظيفته)

من خلال المدخل الإشكالي للفصل الذي حاولنا فيه تقصي اصطلاح العقل لغة و معنى و تقصي دلالته خاصة في القرآن الكريم باعتباره مرجعية نصية لا محيد عنها في الفكر العربي قديما أو حديثا، تتبعنا مفهوم العقل عند الكلاميين كيف عرَفوه و فهموه، و من ثم كيف وظّفوه في مختلف القضايا التي تجادلوا حولها.. مركزين في ذلك على مسألة استخدامه إما كقدرة إلهية لعقلنة النص الديني، و إما كقدرة برهانية للدفاع عن العقائد، و قد اتخدنا في هذا المبحث فرقة المعتزلة كتيار بارز ضمن الفرق الكلامية حرصا منا مع ما يتماشى و منطق البحث الذي اعتمدنا، مع الإشارة إلى أن هذا المبحث كان مختصرا و مكثفا إلى أبعد الحدود حتى لا يكون على حساب إشكالية البحث.

المبحث الثاني: إشكالية العقل و النقل عند الفلاسفة المسلمين

لقد أفردت هذا المبحث للنظر في اشكالية العقل و النقل من أجل الوقوف على البواكير و الإرهاصات الأولى لبعض أنماط التفكير العقلاني من خلال اضطرار الفلاسفة المسلمين من اتخاذ موقف اتجاه مسألة التوفيق بين الدين و الفلسفة، و طبعا حضور العقل في هذه الأخيرة كقدرة على تأويل النص و تكييفه بما يتوافق و الشريعة كان من أهداف بحثنا إبراز إمكانية العقل و حدوده عند هؤلاء الفلاسفة،و من ثم إبراز تلك الجهود العقلانية التي طبعت تفكيرهم.. كما جاء اقتصارنا على "ابن رشد" و "ابن خلدون" كوقفات لهذا المبحث لسببين:

أ. باعتبارهما شكلا منعرجا معرفيا بارزا من خلال إعادتهما النظر في مسار الثقافة العربية الإسلامية.

ب.كونهما مثلا "للجابري" (موضوع بحثنا) مرجعية تنويرية في مسار العقل العربي، الشيء الذي جعله يدمجهما ضمن مشروعه النقدي كحل تجاوزي للقراءة و للتعامل مع التراث.

الفصل الثالث: العقلانية في الفكر النهضوي و الفكر العربي المعاصر

المبحث الأول: مشروع العقلانية في الخطاب السلفي و الخطاب الليبرالي

في هذا المبحث ركزنا بصفة أكثر على المنطلقات و المفاهيم الموظفة داخل الخطاب النهضوي بتياريه الرئيسيين (السلفي، الليبرالي) كونهما اتسما بمواقف و طروحات بديلة لتجربة النهضة الغربية عموما و لمواجهتهما للوضع العربي بكل ما يحمل خصوصا. مما جعلنا في هذه المحاولة نبرز إشكالية الثنائية (اللأنا/الآخر) و التي ترددت في الخطابين، مركزين على الخطاب الليبرالي الحامل لمشروع العقلنة، التقدم.. و إذن الكيفية التي تصورها بعض الرواد و نظروا لها من خلال محاولاتهم في إبراز الشروط الضرورية لتجاور الإنحطاط.

المبحث الثاني: هاجس العقلانية في الفكر المعاصر

في هذا المبحث حاولنا الوقوف عند أهم التيارات الفكرية التي أجمعت على أن أهم شروط تحقيق النهضة هو العمل على تحديث أو تجديد النظر إلى مسألة التراث.. فكان اختيارنا لبعض رواد هذه التيارات على اعتبار اهتمامهم بقضايا التراث شكل منعطفا على مستوى الفكر العربي المعاصر من خلال تشخيصهم لأزمته و من ثم نقد بناه المنتجة له.. و على اعتبار أن معظم كتاباتهم طبعت بمفاهيم ذات طابع "استنساخي" تارة "و "منحوتة" تارة أخرى.. رغم توجهاتهم التي اختلفت من حيث المنهج و الموقف و الرؤية اتجاه التراث، إلا أننا حولنا تصنيف هذه التوجيهات على أساس المنطلق الفكري الذي طبع توجهاتهم، غايتنا في ذلك الوقوف على إشكالياتهم و طبيعة منهجهم، و من ثم محاولة تقييم حلولهم.. بما يتماشي و ما رسمناه لهذا البحث.

الفصل الرابع: محمد عابد الجابري: من أجل تدشين عقلانية عربية جديدة.

المبحث الأول: الجابري: إشكالية المنهج (بين الرؤية و التطبيق)

إضافة إلى ما سبق في التوضيح اختيارنا لنموذج "الجابري" فإننا في هذا الفصل و من خلال هذا المبحث قد حاولنا فحص و دراسة الأهداف المعلن عنها في مشروعه النقدي للعقل العربي و ذلك بالتركيز على أطروحتين بارزتين في مشروعه.

الأولى: و تخص رؤيته اتجاه تعامله مع التراث انطلاقا من الغاية التي حددها في نقد العقل العربي و المتمثلة في تدشين عصر تدوين جديد، و إمكانية كسر البنية الفقهية السائدة، و خلخلت التقليدي من أجل إزاحته بغرض استقلال الذات العربية و المشاركة في إبداع التاريخ.

الثانية: و تخص إشكالية المنهج من خلال إبراز الكيفية التي مكنته من قراءة التراث "قراءة معاصرة" و قادته إلى فهمه في بنيته و ضمن علاقته بتاريخه، كما حاولنا التركيز على الطريقة التي اعتمدها – حسب اعتقاده – إلى استثمار عناصر التراث الإيجابية، للإجابة على تطلعاتنا الراهنة.

من هاتين الأطروحتين حددنا الوقوف مسبقا على تحليله المنهجي المتصف بخصائص ثلاثة: تحليل بنيوي، تاريخي، إيديولوجي من خلال كتاباته الرئيسية للمشروع: تكوين العقل العربي، بنية العقل العربي، العقل السياسي العربي. بالإضافة إلى مصادر أخرى لها علاقة بالمشروع.

المبحث الثاني: الجابري: من التجاوز إلى تأسيس

لقد عملنا على أن يكون هذا المبحث بمثابة مقاربة نقدية للمشروع الجابري من خلال التساؤلات التالية:

إلى أي مدى تمكن "الجابري" من تجاوز القراءات السابقة للتراث و بالتالي من تحقيق القطيعة الابستمولوجية التي اعتمدها سلاحا نقديا.؟ إلى أي مدى استطاع من أن يجمع في قراءته للتراث بين تمثله في ذاته و استثماره من أجل قضايانا الحاضرة؟. ما طبيعة العقلانية التي يدعو إليها في الفكر العربي؟ و ما

قيمة المناهج المتعددة معرفيا و التي وظفها كبديل ضروري اتجاه ما أسماه "بالمنهج الجاهز".

و أخيرا، هل وضَعنا فعلا على أبواب استشرافية تمكّننا من الوقوف على ميلاد عقلانية عربية جديدة؟

من خلال هذه التساؤلات و غيرها.. كانت مقاربتنا النقدية هاته، و التي لم تهدف إلى دراسة كل إنتاجات "الجابري" المتواصلة بقدر ما هدفت إلى ملامسة الغاية التي انطلقنا منها و حددناها لهده الدراسة ككل.

مؤلفات محمد عابد الجابري

1. المنهج التجريبي و تطور الفكر العلمي – مطبعة دار النشر المغربية، ج2
2. العصبية و الدولة – بيروت، دار الطليعة، ط3، 1982.
3. نحن و التراث – الدار البيضاء المغرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، دار الطليعة، 1982 – ص2.
4. الخطاب العربي المعاصر – بيروت، دار الطليعة، ط3، 1988.
5. تكوين العقل العربي – بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط4، 1989.
6. بنية العقل العربي – بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، 1990.
7. العقل السياسي العربي – بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1990.
8. التراث و الحداثة – المغرب، دار المركز الثقافي العربي، ط1، 1991.